نظرة جديدة إلى تاريخ النقد الأدبي عندالعرب

الدكتور فيروز حريرچى ـ نور محمد علی القضاة
أستاذ الأدبى العربي في جامعة اطهران
طالب أردني في مرحلة الدكتوراة، جامعة «تربيت مدرّس»،
قسم اللغة الفارسيَّة و آدابها

(از ص ۱ تا ۱۶)

موجز المقالة:

لقد مرّ النقد الأدبي عند العرب بمراحل زمنيّة مختلفة، و كان له في كلِّ مرحلةٍ من هذهِ المراحل ميزاتُهُ الخاصّة التي تفرضها تلك المرحلة. و قد تطوّر هذا النقد على مدى عدة قرون حتّى وصل إلى درجةٍ عاليةٍ من التنظيم و الإبداع على مانراه في المرحلة العباسيَّة. و المطالع لكتب النقد الحديثةِ يجدُ أنَّ هناك اختلافاً بين النقاد العرب المعاصرين حول تقسيم هذه المراحل، فمنهم من استرسل في التقسيم و منهم من أجمل، هذا و إن كان تقسيم هذه المراحل عند البعض غير مقنعٍ إلى حدٍّ ما، إلّا أنّ الجميع قد أوفَي الموضوعَ حَقَّهُ، و أصاب الهدف.

المصطلحات الرئيسيّة: نقد أدبي، نقّاد، مرحلة، شعر، قدماء و محدثين.

المقدمه:

تعددت طرق تقسيم مراحل النقد الأدبي عندالعرب زمنياً، و قد آخترتُ تقسيم الأستاذ أحمد أمين لهذه الأدوار، حيث قسّمتها إلى مراحل زمنيّة بحسب الحقب التاريخيّة و هي:

١ـ النقد الأدبي في العصر الجاهلي.

٢ـ النقد الأدبي في العصر الأموي.

٣ـ النقد الأدبي في العصر العباسيّ [١]

و هو تقسيم أكثر عموميّة من تقسيم الدكتور إحسان عبّاس، الذي آعتمد منهجاً أكثر تفصيلاً و تجزأةً للمراحل الزّمنيّة. و قد آخترتُ الإطار الذي و ضعَهُ الأستاذ أحمد أمين لمناسبته لمقتضيات المقام هنا و مراعاةً للاختصار.

١ـ النقد في الجاهليّة

تَتَّفِقُ كلمَةُ الباحثين على أنَّ النقد في العصر الجاهلي كان نقداً فطريّاً ناشئاً عن الإنطباع الذي يتركه الشعر في نفس السامع، كما يرى بعض الباحثين. أنّ النقد كانَ محدوداً بمحدوديّة مجالات الشعر نفسه. و يتماشى الأستاذ أحمد أمين مع نظريّة «هيبوليت تين» الإجتماعيّه. و التي ترى أنّ الأدب مرآة للواقع البيئي والإجتماعي. يقول الأستاذ أمين: «فالأدب العربي الجاهلي نتيجة صادقة لبيئته، و حياتهم الطبيعيّة جعلتهم يقصدون إلى أغراض معيّنة استلزمتها الحياة الصحراويّة في البادية، فعواطفه و عقليته و أسلوبه نتيجة لنوع حياته» [٢]

و يقول الدكتور صالح هويدي: «لعلّ أبرز ما يميّز النقد العربي في مرحلته الأولى أنّه يأخذ شكل أحكام جزئية و نظرات عفويةٍ تعبّرُ عن ذوقٍ بسيط تأثّري في جُمَلٍ مركّزة تنزع نحو التعميم، و من هنا كثرت الأحكام التي تصفُ شاعراً لبيتٍ قالَهُ بأنّهُ أشعر العربِ» [٣]

أمّا الدكتور إحسان عبّاس فهو يتجاوز النقد في تلك المرحلة تجاوزاً كاملاً، ولايشيرُ إليهِ ضمن السياق التاريخي لتطوّر النّقد، و يُعَلّل الدكتور قاسم المومني هذا الموقف بأنّ إحسان عباس تجاوز في كتابه تاريخ النقد الأدبي عند العرب مالم يكن واضح الدّلالة في كيان النقد الأدبي عندالعرب، فيقول: «يؤرخ إحسان عبّاس لنقد الشعر عند العرب على مدى سبعة قرون و يتجاوز في تاريخِهِ مالم يكن واضح الدّلالةِ في كيان النقد الأدبي عند العرب، و ذلك هوشأن النقد منذالجاهليّة حتى قبل أواخر القرن الثاني الهجري إذ إنّ معظمه إن لم يكن كلّهُ يتحدّثُ عن شؤون خارجةٍ عن الشعر نفسه».(٤)

و قد كان للعرب مجالسهم الأدبيّة و أسواقهم التي يجتمعون فيها، و يتناشدون و ينقُدُ بعضهم الآخرُ أو يحتكمونَ إلى طرفٍ ثالث، و قد برز النابغة الذّبياني في نقد الشعراء و تفضيل بعضهم على بعض. فقد فضّل الأعشى و الخنساءَ على غيرهما من الشعراء، و هو نفسه لم ينجُ من نقدِ النقّادِ الذين عابوا عليهِ الإقواءَ في قوله:

أمِـنَ آلِ مـيّةَ رائحُ أو مـغتدِ ... عـجلانَ ذازادٍ و غـير مـزوَّدِ

زعم البوارح أنَّ رحلتنا غـداً ... و بذاک حدّثنا الغرابُ الأسودُ

فغيّرَ شطر البيت ليصبحَ: و بذاک تِنْعَلبُ الغرابِ الأسودِ، و من آثار هذهِ الجهود النـقديّة البسـيطة تـفضيلهم لمـجموعةٍ مـن القـصائد المشـهورة و التـي سـمّوها بالمعلقات.

نستخلص من ذلک أهمّ ميّزات النقد في ذلک العصر و يمكن حصرها فيمايلي:

الف ـ إنحسار مجالات النـقد تـبعاً لإنـحسار مـواضـيع الأدبِ المـتعلقة بـالبيئة المحيطةِ.

ب ـ النقد الفطري غير المُعَلّل، لأنّهُ انعكاسٌ لشعور الناقد تجاه القصيدة.

ج ـ غياب المعايير النقديّة المنهجيّة الواضحة.

د ـ الميل إلى التعميم بتفضيل شاعرٍ لأجلِ بيتٍ واحد.

۲ـ النقد في عصر صدر الإسلام

و نعني بهذه المرحلة العهد الإسلامي فى المرحلة النبويّة و الرّاشديّة حيث نجدُ الشعر العربي ذاته قد آصطبغ بل و تأثّرَ في جوهره وفق معايير الدين الجديد و قيمهِ الاخلاقيّة التي جاءَ بها القرآن و الذي كان لَهُ موقفٌ نقديٌّ واضحٌ ينصرف بشكلٍ أساسيّ إلى مضامين الشعر، و ذلک في قوله تعالى «وَ الشُّعراءُ يتّبِعُهُمُ الغَاوونَ * أَلَمْ تَرَ أَنَّهُمْ فِي كُلِّ وَادٍ يَهيمِوُنَ * وَ أَنَّهُمْ يَقُولُونَ مَا لا يَفْعَلُونَ * إِلَّا الَّذينَ ءَامَنُوا وَ عَمِلوا الصّالحاتِ وَ ذَكَروا اللَّهَ كَثيراً و آنتَصَروا مِن بَعْدِ مَاظُلِموا وَ سَيَعْلَمُ الّذينَ ظَلَموا أَيَّ مُنْقَلَبٍ يَنْقَلِبونَ*»(۵)

و لايُفْهَمُ من هذا أنَّ الموقف القرآني رافضٌ للشعر رفضاً مباشراً بل إنَّه بداية لنقدٍ جديد يستند إلى ملاحظة أثر البيئةِ الجديدةَ و القيم الجديدة التي أوجدها الإسلام على الشعر، ولذلک نرى النبي (ص) يستنشِدُ حسّاناً شعراً بقولِهِ «أنشدني قصيدةً من شعر الجاهليّة فإنَّ الله تعالى قد وضع عنّا آثامها في شعرها و روايته»، فأنشده قصيدةً للأعشى هجا بها علقمة بن علاثة:

علقم ما أنت إلى عامر الناقض الأوتار و الواتِرِ

فقال النبي (ص): ياحسّان لا تَعُد تنشدني هذه القصيدة بعد مجلسک هذا، فقال: يا ررسول اللّه تنهاني عن رجلٍ مشركٍ مقيمٍ عند قيصر، فقال (ص): «يا حسان أشكَرُ الناسِ للناس أشكرهم للّهِ تعالى، و إنّ قيصر سأل أبا سفيان بناحربٍ عني فتناول منّي، و إنَّهُ سأل هذا (علقمه) عني فأحسنَ القول»، فنرى أنّ قيمة العرفان بالجميل و كفّ الغيبة عن الناس شكّلت مدخلاً نقديّاً للبيت السابق.(۶) و على هذا راح الخلفاء الرّاشدون يفاضلون بين الشعراء على آعتبار أنَّ الشعر ذاته ليس مذموماً كما أنهم كانت لهم نظرات نقديّة خالصة في مثل هذهِ المفاضلات فأبوبكر يفضّل النابغة لاعتبار عذوبة شعره و عمر ـ الذي رويت عنه أقوالٌ كثيرةٌ في النقد ـ كان يفضّلُ زهير بن أبي سلمى لابتعادهِ عن حُوشيِّ الكلامِ و المعاضلةِ و التعقيد، و عثمانُ يعجبه في

زهير الصّدق.(٧)

و يمكن القول أنَّ أوسع الأراء النّقديّة و أقربها إلى الجمع بينَ النقد وِفْقَ المعنى من جهةٍ والنقد وفق ابداع الشاعر ذاتِهِ في صورهِ و تراكيبه من جهةٍ أخرى في هذه المرحلة تبرُزُ في آراءِ الإمام علي (ع) النقديّة، و من ذلک قولُهُ عندما سألَهُ أبوالأسود الدؤلي عن رأيهِ في المفاضلة بين الشعراء، فقال: «كلّ شعرائكم مُحسن و لوجمعهم زمانٌ واحدٌ و غايةٌ واحدة و مذهب واحد في القول لعلمنا أيُّهم أسبق إلى ذلک، و كلّهم قد أصاب الذي أراد و أحسن، فإن يكن أحدٌ فَضَلَهُمْ فالّذي لم يَقُل رغبةً و لارهبةً، امرؤالقيس بن حجر فإنَّه كان أصَحّهم بادرةً و أجودهم نادِرَهْ». (٨)

و قد تنّبهَ نقّادٌ معاصرون كالدكتور صالح هويدي إلى أنّ مثل هذه الآراء للإمام علي (ع) تمثّل آستباقاً تاريخيّاً لايجاد مقاييس موضوعيّة و آعتبارات مهمة في الحكم على الشعراء و المفاضلة بينهم بعيداً عن الهوى و سلطان الذّاتيّة. (٩) و لذلک فإنني أسجّل مأخذاً مبكراً على منهجيّة الأستاذ إحسان عبّاس الذي تجاوز بوادر النقد العربي برمّتِهِ قبل القرن الثاني الهجري، غير آخذٍ بعين الإعتبار وجودَ مثلِ هذه الآراء القيّمة و التي تعتمِدُ على معايير نقديّة لهاشأنها، ممّالايجوز إغفاله في كتابٍ يتناول تاريخ النقد الأدبي العربي.

٣ـ النقد في العصر الأموي:

ازدهرت الحركة الأدبيّة في ذلک العصر وكان لها أثرٌ في ازدهار الحركة النقديّة، و نستعرض هنا أهمّ بيئات هذا النقد و هي الحجاز والعراق و الشّام.

الف ـ الحجاز: جمع الحجاز في ذلک العصر بين ظاهرتين متناقضتين فهو أكبر مركز للحركة الدينيّة و الفقهيّةِ، كما كان مركزاً لحياة الترف والطرب، ففي مكة كان ابن سريج شيخ المغنين و منافِسُهُ الغريض، وكان في المدينة سائب و نشيط و طوبيس و مَعْبَدْ. ممّا أتاح الفرصة لظهور أدبٍ رقيقٍ فيه الدعابة و الوصف و الغزل المبالغ فيه

والذي مثّله عمربن ابي ربيعة و الأحوص و غيرهما. و ظهر الغزل العذري المحافظ كما في شعركثيّر عزّة، ممّا عكس آثاره على النقد الذى وَجَدَ مكاناً لَهُ في الاحتكاك بين أصحاب الإتجاهين [۱۰]، و قد برزت السيّدة سكينة بنت الحسين (ع) كمرجع نقدي لها مجلسها الأدبي الذي يقصِدُهُ الشعراء، قال فيها صاحب الأغاني «إنها كانت عفيفة تجالسُ الأجلّةَ من قريش و يجتمعُ إليها الشعراء».

ب ـ الشام: كانت دمشق حاضرة الدولة في ذلک العصر و قد كان الشعراء يتسابقون لنيل رضى خلفاء الأمويين بالمدح ممّايجعل النّقد والملاحظات النقديّة تتجهُ إلى هذا الغرض الشعريّ أكثر من غيره و قدكان الخلفاء و الولاة أنفسهم يقومون بعمليّة النقد لما يعلمون من أهميّة الشعراء في تثبيت قواعد دولتهم و توجيه الرأي العام، إلا أننامع ذلک نجد آبتعاداً عن معايير و قيمَ النقد التي سادت في عصر صدر الاسلام فهذا زياد بن أبيه يسمع شاعراً يمدح معاوية بقولِهِ:

معاوية التقيُّ السريُّ أمير المؤمنين أعطى ابن جعفر مالاً فقضى منهُ الديّونَ

فقال زياد: أتُعطي على مثل هذا الشّعر، فقال: نعم إنّ الشعركذبُ وهزل، و أحقُّهُ بالتفضيل أهزله. [۱۱] و يرى الدكتور أحمد أمين أنَّ مقتضيات السياسة هي التي تحكمت بالذوق النقدي هنا. و قد برز عبد الملک بن مروان كناقد، و من ذلکَ أنَّهُ دخَلَ عليهِ عبيدالله بن قَيس الرّقيّات فأنشدَهُ قصيدةً في مدحِهِ يقولُ فيها:

إنَّ الأغـرّ الذي أبـوه أبـوال عاصي عليه الوقار و الحجبُ
يأتـلق التـاج فـوق مـفرقِهِ عـلى جـبينٍ كأنَّـهُ الذّهبُ

فقال لَهُ عبدالملک: تمد حني بالتاج كأنني من ملوک العجم، و تقولُ في مصعب بن الزبير:

إنّما مصعب شهابٌ من اللّه تجلّت عـن وجـهه الظـلماءُ
مُـلْكُهُ مـلک عـزّةٍ ليس فـيه جبروت مـنهُ ولاكـبرياءُ[۱۲]

و هكذا نلاحظ أثر الاضطرابات السياسيّة و الخلافات الخزبيّة على النقد.

ج ـ العراق: ميّز العراق في تلك الفترة ظهور أدب النقائض الشعريّة و التي كان من أبرز شعرائها جرير و الفرزدق و الأخطل و الذين شغلوا النقاد في تتبع أشعارهم و تفضيل بعضهم على بعضٍ و تعقب أخطائهم اللغويّة و النحويّة حتى أصبح أدب النقائض معياراً لعلوّ شعر الشاعر، فقد رُوي أنّ ذا الرمّة قال للفرزدق: «مالي لا ألحقُ بكم معشر الفحول»، فقال لَهُ: «لتجافيك عن المدح و الهجاء و آقتصارك على الرسوم و الدّيار». و قد آشتهر سوق (المِربَدِ) كمجمعٍ أدبيّ حافل يشبه سوق عكاظ في الجاهليّة، و من النقاد في هذا السوق عبدالله بن اسحاق الحضرمي و الذي ركّز في نقده على اللغة و الأخطاء النحويّة. (١٣)

٤ـ النقد في العصر العبّاسي

كان أوّل ما عُرفت كلمة النقد مقترنةً بالأدب في هذا العصرِ. فقد ظهرت في كتاب قدامة ابن جعفر «نقد الشّعر»(١٤) و كذلك في الكتاب المنسوب إليه خطاءاً «نقد النثر» و هو كتابُ «البرهان في وجوه البيان» لاسحٰق بن وهب الكاتب (١٥)، كما استعمل ابن رشيق القيرواني كلمة النقد عنواناً لكتابه «العمدة في محاسن الشعر و نقده. و يعتبر هذا العصر بدايةً لنظريات نقديّة متكاملة، بل يمكن القول إن معظم. ماطرحه النقّادُ الغربيون في العصور الحديثة من نظريّات و ما و ضعوه من مناهج نقديّة تستمدُّ أُصولها بدرجاتٍ متفاوتةٍ من نظريات هذه الحقبة من تاريخ النقد الأدبي العربي.

و قد افتتح هذا العصر الأدبي الخليلُ بن أحمد الفراهيدي بوضعه علم العروض و آستعار مصطلحات من بيت الشَّعرِ (بفتح الشين) و الذي عُدّ مقياساً لعمود الشِّعر.(١٦) وسأعرض لهذهِ المرحلة النقديّة من خلال تتبعي لأهمِّ النّقاد و أهمِّ آرائهم النقديَّة لأخلُصَ بعد ذلك إلى محاولةٍ لتحديد أهمّ معايير النقد في ذلكَ العصر. و هنا لابدّ من التمييز بين مدرستين نقديتين ظهرتا في أواخر القرن الثاني هما مدرسة

المحافظين التقليديين الذين اعتمدوا مقاييس النقد الأموي كالذوق الفطري والنقد اللغوي. و مدرسة المجدّدين الذين وسّعوا آفاق النقد ليشتمل قضايا تمسُّ الأدب في جوانبه المتعدّدة. (١٧) يمثّلُ المدرسة الأولى: أبو عمروبن العلاء و خلف الأحمر و أبو عبيده بن المثنى و الأصمعيّ، و سأختار الأخير كنموذج، و يمثّل المدرسة الجديدة نقادٌ كبار كابن سلام الجمحي و قدامة ابن جعفر و ابن قتيبة و الآمدي والمرزوقي و غيرهم.

الف ـ المدرسة التقليديّة: أصحاب هذه المدرسة يشبهون النمط الأموي في طرحهم النقدي إلّا أنّهم كما يلاحظ الاستاذ احمد امين كانوا اعمق و اوسع لأنّ المادّة الشعريّة عندهم أصبحت أغزر كما أصبح النقد صناعتهم، و خرجوا من الحكم المجرّدِ إلى التعليل (١٨)، و قد أبرز خلف الأحمر أهميّة النقدِ للأديب نفسه في جوابه لشاعرٍ قال له: إذا سمعت أنا بالشّعر أستحسنُهُ فما أبالي ما قلتَ فيهِ أنتَ و أصحابک. فأجابَهُ: إذا أخذت درهماً فاستحسنتَهُ فقال لکَ الصرّاف إنّهُ رديء فهل ينفعُکَ إستحسانک إيّاهُ.(١٩) فالاستحسان المجرّد لم يَعُدْ مقياساً كافياً عند نقاد هذه المدرسة بل لابدّ من خبرة الصرّافِ و موازينه الصحيحية.

ويرى كثيرٌ من الباحثين أن الأصمعي (ت ٢٠١) يمثّلُ أهمّ أصحاب هذه المدرسة، و يقول الدكتور فضل عبّاس: و قد ذَكَرَتْ كتب الأدبِ و الشعر ملحوظات قيّمة دقيقة نُقلَتِ عن الأصمعي تدلّ على علوّ همةٍ و رسوخ قدمٍ كالتجنيس و المطابقةِ والالتفات، كما وجدنا لهُ ملحوظات نقديّة كذلک تتعلّقُ بنقدِ الشعر. (٢٠)

يُعرِّفُ الأصمعيُّ الشاعِرَ البليغ بأنّهُ من طبّق المفصّل و أغناک عن المفسِّرْ. و هو يحدّد بذلک مقاييسَهُ النقديّة بأنَّ الجودة تكونُ بالإلتزام بالاصول النحويّة و القواعد اللغويّة المفصَّلَةِ - و هو مَنْزَعٌ نحوي ـ والميلُ إلى سهولةِ الألفاظ و المعاني بعيداً عن التعقيه والصعوبَة التي تُحوِجُ القارىءَ إلى تفسيرٍ مطوّل. أمّا الدكتور إحسان عبّاس

فتميُّز الأصمعي عندهُ مرجْعُهُ مايلي: أولاً، فَصْلُهُ بين الشعر و الأخلاق؛ أي إنَّهُ ينقْدُ الشعر على آعتبار جودتِهِ بعيداً عمّا يحملُهُ من معانٍ و قيم ثانياً، الفحولة: و يعني بها أن تكون الشاعريَّة هي أغلب صفاتِ الشاعِر، ثالثاً، العناية بالتشبيه، حيثُ يتتبع الأصمعيُّ ما جاءَ به الشاعر من تشبيهات مبتكرة. (٢١)

ب ـ المدرسة الجديدة: حاول أتباع هذهِ المدرسة توسيع آفاق النقدِ وأثاروا قضايا نقديّة جديدة، مثل السرقات الأدبيّة و العلاقة بين اللّفظ و المعنى في النصّ الأدبيّ و قضيّة عمود الشعر العربي و قضيَّة القديم و الحديث في الشّعر و أُسس التفاضل بينهما و قضيَّة الصَّنعة الأدبيَّة و التكلّف، و فيمايلي عرضٌ متسلسلٌ زمينياً لأهمّ نقاد تلك المرحلة مُضمناً أهمّ النظريات النقديّة المطروحة:

١ـ ابن سلام الجُمحي (ت ٢٣٢): يُعَدُّ كتاب ابن سلام (طبقات الشعراء) أقدم ما وصل إلينا من كتب النقد و الذي قسَّم فيه الشعراء إلى طبقات بترتيبهم ترتيباً تنازليّاً حسب درجة شاعريّتهم ـ وفق رؤيته النقديّةِ طبعاً ـ فالطبقة الأولى تضمُّ شعراء أعلى درجةً من أصحاب الدرّجة الثانية، وقد تناول ابن سلام في كتابِهِ الأفذاذَ من الشعراء من أهل الجاهليّة والاسلامِ فوَزّعَ الجاهليين في عشر طبقات في كلّ طبقةٍ أربعة شعراء و جعل الإسلاميين في عشرٍ أيضاً في كلّ طبقةٍ أربعةٌ كذلك.(٢٢)

و يرى الدكتور إحسان عباس أنَّ الجديد في طرح ابن سلام هنا ـ رغم التزامه الأُسُسَ والمبادىء اللغويَّة التقليديّة ـ يكمُنُ في أنَّهُ نصَّ على استقلال النقد الأدبي و أنَّ للناقد دوراً خاصاً حين جَعَلَ لنقدِ الشعر و الحكم عليه صناعة يتقنها أهل العلم بها. (٢٣) و القضيّة الثانية التي اهتمَّ بها ابن سلام هي مسألة الوضع و الانتحال، و خلاصة رأيه فيها أنَّ ما وصلنا من الشعر الجاهلي كان قليلاً و قد تشاغل العربُ عنهُ عندما جاءَ الإسلام بالجهاد و الفتوحات، مِمَّا فتح الطريق للبعض كي يؤلف الاشعار

و ينسبها إلى شعراء الجاهليّة. و ابن سلام يشاركُهُ في نظريتهِ هذهِ غيرهُ من نقاد تلك الفترةُ، فهذا ابوالطيب عبدالواحد اللغوي يتّهم خلف الأحمر بأنّهُ كان يضَعُ الشعر و ينسبه إلى العربِ فلايعرفُ. (٢٤) و قد ردّ ابن سلام اسباب مثل هذ الأمر لأمرين: العصبيّة القبليّةِ و رواة الشعر أنفسهم. فالقبائل تؤلف الأشعار و تنسبها لشعرائها في الجاهليّة و رواة الشعر يزيدونَ في الاشعار. و يمكنُ القولُ هنا إنّ ابن سلام أراد أن يضع لوجود العمليّة النقديّة مبرّرات قويّة و ذلک بالخلوصِ إلى أنَّ التمييز بين ما هو صحيح النسبة و ما هو غير صحيح، يحتاجُ إلى أهل الخبرةِ و المعرفةِ بالشّعر. الذين اذا حكموا ببطلانِ نسبة هذا الشعر أوذاکَ إلى الجاهليين فليسَ لأحدٍ أن يقبَلَهُ.

٢ـ الجاحظ (ت ٢٥٥): يبرزُ الجاحظ كأحد أهمِّ الذين وقفوا في وجه الحركة الشعوبيّة التي كانت تنتقِصُ من شأن العرب و ثقافتهم تلک الحركة التي لاقت في المحيط الاسلامي كلّه استنكاراً و شجباً باعتبارها فكرة عنصريّة بَحْتَهْ من شأنها تمزيق الأُمّةِ، فوقف مثقفوا العربِ و الفرسِ و غيرهم في وجه هذهِ الحركة.

إنّ من أهمّ القضايا النقديّة التي أثارها الجاحظ قضيّة اللفظ و المعنى، فقد أكّد الجاحظ على أنّ المعاني مُشْتَرَكَةٌ بين الجميعِ، و ذلک في قوله المشهور «والمعاني مطروحةٌ في الطريق يعرفها العجميّ والعربي و البدوي و القروي». ويرى الدكتور إحسان عبّاس ـ بعد أن نقل هذهِ العبارة ـ أنَّ الجاحظ يعتَبرُ أوّل من طرح إشكالية الشكل و المضمون و العلاقة بينهما. (٢٥) وقد تعرّضَ الجاحظ في كتابه البيان و التبيين إلى مسائل نقديّة مختلفة كقضيّة الوضع والانتحالِ و السّرقات الأدبيّةِ و الموهبةِ.

٣ـ ابن قتيبة (ت ٢٧٦):كان أبومحمد عبداله بن مسلم ابن قتيبة معاصراً للجاحظ و لكنّهُ يختلف عنهُ في أنّ آراءه و أفكاره النقديّة جاءت منظمةً و مرتبة في مقدمته

لكتابه (الشعر و الشعراء)، و قد تعرّضَ ابن قتيبة في مقدمة هذا الكتاب إلى عدّة مسائل نقديّة من أهمها: الف ـ تقسيم الشّعر أقساماً أربعة: ما حَسُنَ لفظهُ و معناه معاً، و ما حسُنَ لفظه دون معناه، و ما حسن معناه دون لفظه، و ماساءَ، لفظه و معناه، ب ـ طرحُ قضيّة التكلّف و الطبع، ج ـ الموهبة الشعريّة واختلافهما بين الشعراء باختلاف الاغراض فمنهم من تسهل عليه عليه المراثي و منهم من يَسْهُلُ عليه المديح و هكذا،د ـ إستعراضه النقدي للبناء التقليدي للقصيدة الجاهليّة و تفسيره لهذا البناء من الوقوف بالأطلالِ إلى وصف النّاقةِ و الرّاحلة إلى سائر أغراض القصيدة، هـ ـ قضية القدماء و المحدثين و هي أهمّ نظريّات ابن قتيبة النقديّة، حيث دافع بشدّة عن المحدثين من الشعراء بانياً دفاعَهُ على أنّ الإبداع ليس خاصّاً بعصرٍ دون آخر، كما أنّ ما نراه اليوم قديماً كان في حينه مُحْدَثاً و أنَّ العبرة في ا لجودة لا في الزّمنِ. (٢٦)

٤ـ قدامة ابن جعفر (ت ٣٣٧): يُعْتبَرُ قدامة بن جعفر أوّل من خصّصَ كتاباً للنقدِ وحْدَهُ و سمّاهُ نقد الشعر. و يرى كثيرٌ من الباحثين و منهم الدكتور أحمد أمين و الدكتور طه حسين أنَّ قدامة هو أوّل من أدخل نظريّات ارسطو و منطقهُ إلى الأدب العربي في كتابه نقد الشعر، يقول الدكتور طه حسين: «وقد أنفق قدامة مجهوداً طريفاً في ردّ سائر الفنون الشعريّة إلى وقد أنفق قدامة مجهوداً طريفاً في ردّ سائر الفنون الشعريّة إلى المديح و الهجاء ليُخْضِعَهَا كلّها لنظريّة أرسطو المتعلّقة بالمنافرات... و ممّا تقدّم نرى أنّه عندما حاول الفكر اليوناني للمرّة الأولى أن يسيطر على الأدب العربي كانت محاولته قاصرةً على الشعر» (٢٧) و يقول الدكتور أحمد أمين عن قدامة «و هو المسؤول الأوّل من تسرّبِ بعض آراء ارسطو و أمثاله من اليونانيين إلى البلاغة العربية و آدابها» (٢٨). و يرى الدكتور شوقي ضيف أنَّ قدامة في تقسيماته قد ترسّم خطى ارسطو لإعتقاده بأنّهُ أدرك العلاقات بين نظريّات ارسطو و تطبيقها على الأدب العربي، يقول شوقي ضيف «و كأنّهُ ـ أي قدامة ـ يريد أن يقول إنّهم فقدوا

الدليل الهادي من كتابات ارسطو و لذلک قصّروا (أي النقّاد).... و لعلّ قدامة أيضاً قدتأثّرَ في قوله بقبولِ المناقضةِ [۲۹] بما جاء في صدر كتاب الخطابة لأرسطو». [۳۰]

و ما يمكن أن يقال هنا بتقديري أنّ قدامة ـ كما يلاحظ كلّ من آستعرض كتابه نقد الشعر ـ قد بنى كتابه بناءً منطقيّاً محكماً، فقد بدأ بالشعر و عرّفَهُ التعريف المشهور «قولٌ موزونٌ مقفّى دالٌّ على معنى». [۳۱]، لينقسم الشعر إلى أربعة أقسام: اللفظ و الوزن و القافية و المعنى. وكانَ هدفه من وراء هذا البناء المنطقي أن يلخصَ الخوض النقدي السابق و المبعثّر في كتب من سبقهُ من النقّاد في قواعد و مبادىء نقديّة واضحة تكون مَرْجعاً للاحكام النقديّة.

ولاننسى أن كثيراً من العلوم في ذلک العصر قد آنتحى أصحابها منحى التقعيد و تحديد المفاهيم الخاصّة بكلّ علمٍ على نحو ما فعل السَّكّاكي (ت ۶۲۶) في كتابه مفتاح العلوم، و الرازي في كتابه نهاية الايجاز اللذاين و ضعا لعلم البلاغة قواعد ثابتة و كذلک الجهود المختلفة في النحو و علوم الشريعة المختلفة. و مهما قيل عن محاولة ابن قدامة في تقعيد علم النقد فإن كتابَهُ جاء حافلاً بكثيرٍ من القضايا النقديّة التي سَتَلمِس أثرها على مسيرة النقد فيما بعد و أهمّها نظريّته التي نادى فيها بارتباط المدح و الهجاء و الرّثاء بالفضائل أو العيوب النفسيّة الخُلُقيّة لا بالصفات الجسميّةِ أو الماديّة لأنّ الفضائل هي ما يميّز الانسان عن سائر الحيوان.

۵ـ الآمدي (ت ۳۷۰): يُنْظَر إلى الآمدي على أنّهُ أهمّ النقاد العرب الذين انطلقوا بالنقد من النظريّة إلى التطبيق، و ذلک في كتابه (الموازنة بين الطائيين) بين أبي تمّام الطائي و البحتري، باعتبارهما ممثلين لمذهبين مختلفين في الشعر، فأبوتمام يمثّلُ المذهب البديعي و في هذا المذهب يُكثِرُ الشاعر من الفنون البديعيّة إلى حدّ المبالغة والبحتريُّ يمثّلُ مذهب الطبع الذي تأتي فيه المحسّنات البديعيّة طبيعيّة دون تكلّف [۳۲] و قد نال كثيراً من أبي تمام لإغراقِهِ في الفنون البديعيّة و من ذلک

تعليقُهُ على قوله:

جذبتُ نداه غدوةَ السبت جـذبةً فخرّ صريعاً بـين أيـدي القـصائدِ

فقد رأى فيه تكلّفاً شديداً يُخرجُهُ عن الذوق السليم. (٣٣)

و قد توسّع في مذهب المقارنة هذا القاضي على بن عبدالعزيز الجرجاني (ت ٣٩٢) في كتابه (الوساطة بين المتنبي و خصومه)، و يرى الدكتور إحسان عبّاس أنّ كتاب الموازنة للآمدي يمثّل و ثبةً في تاريخ النقد الأدبي بما آجتمع له من خصائص، في حين يرى أنّ كتاب الجرجاني (الوساطة) تفوّق على كتاب الآمدي في المجال التطبيقي و يُعَلِّلُ ذلك بأنّ الآمدي اعتمد منهج الموازنة بينما اعتمد الجرجاني المقايسة (٣٤)، مع تسليمه بالسَّبقِ للآمدي. (٣٥)

٦ـ عبدالقاهر الجرجانيّ (ت ٤٧١): أثَّرَت المشكلة الخلافيّة حول اللفظ و المعنى ـ و علاقتهما ببعضهما ـ في النقد الأدبي العربي كثيراً، حتى جاءَ عبدالقاهر الجراجاني لِتَتَّفق كلمة الباحثين على أنَّ نظريّتهُ المشهورة بنظريّة (النظم) قدّمت رؤيةً متكاملةً لعلاقة اللفظِ بالمعنى. و لعبد القاهر الجرجاني كتب مهمّة في البلاغة العربيّة و الاعجاز منها (دلائل الاعجاز) و (اسرار البلاغة)، في كتابه الأوّل تحدّثَ عن النظريّة المذكورة و التي أصبحت تُعْرَفُ فيما بعد بعِلْمِ المعاني في البلاغة العربيّة.(٣٦) و يرى الجرجاني أنّ الشأن في الكلام للنظم لاللألفاظ المفردة، بمعنى أن نضع كلّ كلمةٍ في المكان الذي يتطلبها و السياق الذي يقتضيها، فالنظمُ لا يخصُّ اللفظ وحدهُ ولا المعنى وحْدَهُ، و إنّما هو ترتيب المعاني في النفسِ أولاً و ثانياً ترتيب الألفاظ في النطق حسب ترتيب المعاني في النفس فالنظم لابدّلَهُ من اللفظ و المعنى. (٣٧)

ويلاحظ الدكتور إحسان عبّاس سَبْق أبي بكر الباقلّاني (ت ٤٠٣) في كتابه (إعجاز

القرآن) إلى وضع فكرة الإعجاز في سياقٍ نقدي، و لكنَّهُ يرى أنّ الباقلاني إندفع لإثبات إعجاز القرآن مهاجماً قصائد مشهورة لامرىء القيس و البحتري و غيرهما. بينما جاءت فكرة الإعجاز ناضجةً عندالجرجاني الذي حاول تقصّي تقنيات الكلام عبر النظم. يقول الدكتور إحسان عبّاس: «إنَّ اللفظة لايُحْكم عليها قبل دخولها في سياقٍ معيّن لأنها حينئذٍ تُرى في نطاقٍ من التلائم و عدم التلائم (مع الغير) و هذا السياق هو الذي يُحْدث تناسق الدلالة و يَبرزُ فيه (معنى)، و من شاء أن يحكم على مدى الصواب و الخطأ في النظم فلابُدّ له من أن يُعالج قضايا التقديم و التأخير و الوصل و الفصل والاستفهام والنفي و هو ما أصبح من بعد عبدالقاهر يسمّى علم المعاني» [٣٨] و يقولُ الأستاذ محي الدين صبحى في تعليقه على كلام الدكتور إحسان عباس هذا: «إنّ نظريّة النظم هي من أهمّ كشوف النقد الأدبي على الإطلاق، وَحَسْبُنا من أهميّتها أنَّ أُورو بالم تعرفها إلّا في الثلاثينات من هذا القرن، حين أصدر الناقد الانجليزى (ايفور ريتشاردز) **Richards, I.A.** * كتابه (معنى المعنى) **The Meaning of The Meaning)** [٣٩]

و بالإجمال فإنَّ النقدَ في هذا العصر قدمسَّ قضايا جوهريّة عادَ النقد الحديث ليبحثها و يُثيرها من جديد، و إن ظلّ النقد في هذا العصر متخذاً من البعد البلاغي أساساً للعمليّة النقديّة، مّما جعل معظم هذا النقد نقداً لغويّاً.

الهوامش:

١ـ النقد الأدبي، أحمد أمين، دار الكتاب العربي، بيروت، ط ٤، ١٩٦٧، ص ٤٤٥ و ما بعدها.

٢ـ المصدر السابق، ص ٤٤٥.

٣ـ النقد الأدبي الحديث قضاياه و مناهجه، د. صالح هو يدي، منشورات جامعة السابع من إبريل، ليبيا، ط ١، ص١٥.

٤ـ إحسان عبّاس و كيان العرب النقدي، الدكتور قاسم المومني، ضمن ندوة دراسيّة متخصّصة، منشورات عبدالحميد شومان، عمّان، ط ١، ١٩٩٨، ص ٦٣.

٥ـ سورة الشعراء، الآيات ٢٢٤ـ٢٢٧.
٦ـ دلائل الاعجاز، عبدالقاهر الجرجاني، شركة الطباعة الفنيّة المتحدة، القاهرة، ط ٣، ١٩٦١، ص٧١٧.
٧ـ المصدر السابق.
٨ـ منهاج البلغاء، و سراج الأدباء، أبوالحسن حازم القرطاجنّي، تقديم و تحقيق محمد الحبيب بن الخوجه، دارالغرب الاسلامي، ط ٣، ١٩٨٦م، ص ٣٧٧.
٩ـ النقد الأدبي الحديث، قضاياه و مناهجه، ص ٥٣. ١٠ـ النقد الأدبي، أحمد أمين، ص٤٥٣.
١١ـ المصدر السابق، ص ٤٦٤. ١٢ـ المصدر السابق، ص ٤٦٦.
١٣ـ المصدر السابق، صص ٤٥٨ـ٤٥٩.
١٤ـ معجم المصطلاحات العربيّة في اللغة و الأدب، مجدي هبه و كامل المهندس، مكتبة لبنان، بيروت، ط ٢، ١٩٨٤، ص ٤١٧.
١٥ـ مقدمة طه حسين لكتاب نقد النثر، دار الكتب العلميّة، بيروت، ١٩٨٢، ص١٩.
١٦ـ إحسان عبّاس والنقد الأدبي، محيي الدين صبحي، الدار العربيّة للكتاب، ١٩٨٤م، ص١٧.
١٧ـ النقد الأدبي، أحمد أمين، ص ٤٧٣. ١٨ـ المصدر السابق، ص ٤٧٢.
١٩ـ النقد الأدبي الحديث قضاياه و مناهجه، ص ٨.
٢٠ـ البلاغة المفترى عليها، فضل حسن عباس، دارالفرقان، عَمّان، ط ٢، ١٩٩٩م، ص ١١٦.
٢١ـ تاريخ النقد الأدبي عندالعرب، منذ القرن الثاني حتى القرن الثامن الهجري، إحسان عبّاس، دارالثقافة، بيروت، ط ٢، ١٩٧٨م، ص ٥٤. ٢٢ـ النقد الأدبي، أحمد أمين، ص ٤٧٤.
٢٣ـ إحسان عبّاس و النقد الأدبي، ص ١٩.
٢٤ـ معجم الأدباء، ياقوت الحموي، ج ١١، ص ٦٨.
٢٥ـ تاريخ النقد الأدبي عندالعرب، ص ٩٥.
٢٦ـ الشعر و الشعراء، ابن قتيبة، تحقيق محمد شاكر، دارالمعارف، مصر، ١٩٦٦، (استخلاص من مقدمة الكتاب).
٢٧ـ مقدمه طه حسين لكتاب نقد النثر، ص ١٦ـ١٧.٢٨ـ النقد الأدبي، أحمد أمين، ص ٤٨٠.
٢٩ـ المناقضة: إحدى نظريات أرسطو في الخطابه و هي أنّ الخطابة ليست لاصابة الحق بل للاقناع و لذلك يمكن آستخدامها لإثبات النقيضين.
٣٠ـ البلاغة، تطوّر و تاريخ، شوقي ضيف، دارالمعارف، القاهره، ط٢، ص ٧٩.

۳۱ـ نقد الشعر، قدامة بن جعفر، تحقيق الدكتور عبدالمنعم خفاجي، مكتبة الكليّات الأزهريّة، ط۱، ۱۹۷۸م، ص ۱۱.

۳۲ـ البلاغة المفترى عليها، ص ۱۳۷.

۳۳ـ الموازنة بين الطائيين، ابوالقاسم الحسن بن بشر الآمدي، تحقيق سيّد صقر، داراالمعارف، القاهره، ۱۹۶۱م، ج ۲، ص ۳۲۵.

۳۴ـ الموازنة: تعتمد على التفضيل وإطلاق الأحكام، بينما المقايسة: دراسة منهجيّة تبتعدُ عن إطلاق الأحكام.

۳۵ـ تاريخ النقد الأدبي عندالعرب، ص ۲۱۶.

۳۶ـ البلاغة المفترى عليها، ص ۱۴۱.

۳۷ـ المصدر السابق، ص ۱۴۲.

۳۸ـ تاريخ النقد الأدبي عندالعرب، ص ۲۲۰ـ۲۲۱.

۳۹ـ إحسان عبّاس و النقد الأدبي، ص ۵۳.